المحاضرة الثامنة: ازدهار العلوم اللسانية في العصر العباسي

مدخل:

يعد العصر العباسي الأول من أزهى العصور الذهبية لتنمية الفكر العربي وبسبب نقل العلوم المختلفة من اللغات المختلفة إلى اللغة العربية.وذلک لأن حاجة المسلمين أصبحت فى هذا العصر شديدة إلى الانفتاح على تراث الأمم المتطورّة .

وقد عني الخلفاء العبّاسيون بترجمة جوانب مهمّة ممّا كانوا يحتاجون إليه في الشؤون السياسيّة والاجتماعية والطّب والفلك والنجوم والرّياضيات والفلسفة والمعارف والعلوم الأخرى. ولم يقتصر الأمر على تشجيع الخلفاء فحسب، فقد كان الاهتمام عاما وشاملاً بين فئات الناس في بغداد و البصرة و الكوفة وسائر أرجاء الإمبراطورية الإسلامية. والسبب هو اتّساع الحياة العقلية التي أدّت إلى ثورة سياسية. وممّا يؤيد هذا الكلام إنما نجد لدى مختلف العلماء المسلمين اطلاعا واسعا على مناهج البحث وأساليبه عند الأمم المختلفة ولاسيما الفرس واليونان.

ازدهارا لعلوم اللسانية في العصر العباسي:

علم النحو و الصرف هو علم يختص بدراسة الأصول التي تعرف بها أحوال الكلمات العربية من جهة الإعراب والبناء بعد انتظامها في الجملة. فعن طريق هذا العلم نستطيع أن نعرف ما يجب أن تكون عليه الكلمة من رفع أو نصب أو جر أو جزم. وعلم النحو لا ينفك عن علم الصرف، فهذان العلماء متلازمان، فعلم الصرف هو العلم الذي يبحث في صيغ وأوزان الكلمات العربية المفردة قبل انتظامها في الجملة. و نشأت مدرستين للنحو بإسم المدرسة النحوية الكوفية في مدينة الكوفة في العراق أيام العباسيين وعلى رأسهم الإمام علي بن حمزة الكسائي.و المدرسة النحوية البصرية في مدينة البصرة في العراق أيام العباسيين و على رأسهم الإمام سيبويه.

1-علم اللغة :

تطور علم اللغة في العصر العباسي الثاني تطورا ملحوظا بارتقاء النحو و تنظيم المعاجم. و يعتبر القرن الثالث الهجري عصر انتقال في اللغة. فقد ظفر نهاية القرن الثاني بأول محاولة في ضبط اللغة و عمل المعاجم ، حين وضع الخليل بن أحمد منهج "كتاب العين " لتلميذه الليث بن المظفر.و

أنشأ ابن دريد – الإمام في اللغة – (321هـ)كتابه " جمهرة اللغة " وممن ألف في اللغة معجما واسعا على طريقة الخليل ، أبو على القالي البغدادي (228-356ه) صاحب كتاب " البارع في اللغة " ، و كتاب " الأمالى " في اللغة و الأدب. هذا إلى أن الصاحب بن عباد (385هـ) و قد ألف في اللغة كتاب " المحيط " في سبع مجلدات ، و ابن فارس صاحب كتاب " المجمل " ، و أبو منصور الأزهري (370هـ) صاحب كتاب " التهذيب " . و أشهر علماء اللغة في القرن الرابع على الإطلاق إسماعيل بن حماد الجوهري صاحب كتاب " الصحاح في اللغة " وغيرهم من اللغويين البارزين الآخرين.

2- علم البلاغة :

أما علوم البلاغة فهي ثلاثة هي: علم البيان وعلم البديع وعلم المعاني، ولكل منها فروع متعددة. البلاغة هي مطابقة الكلام الفصيح لمقتضى الحال، أو سوق الكلام الفصيح على مقتضى الحال بحسب المقامات، كما أن البلاغة لا تكون وصفا للكلمة أو المتكلم، إنما تكون وصفا للكلام، وتحمل البلاغة معاني كثيرة في ألفاظ قليلة، فالبلاغة كلمة تستخدم لتكشف عن بقية الكلام بإيجاز وإيصال للمعنى. بدأ التأليف في علوم البلاغة مع بداية مرحلة التأليف في العلوم الإسلامية في منتصف القرن الثاني للهجرة ، وقد مرت البلاغة بالأدوار المختلفة حتى بلغت مرحلة النضج.

3- الدراسات اللغوية والنحوية:

فقد شهدت العراق فيها ثورة واسعة ضخمة على أيدي علماء البصرة والكوفة الذين حققوا إنجازات وابتكارات علمية في هذا المجال للحفاظ على كلام العرب وتقويم اللسان العربي، بعد أن فشا اللحن في كلام المسلمين، نتيجة لاختلاطهم بالأعاجم في البلاد المفتوحة. لهذا قام هؤلاء العلماء بجمع وتدوين ألفاظ اللغة العربية وأشعارها من منابعها الصافية في نجد بقلب الجزيرة العربية. كذلك وضعوا قواعد نحوية للغة العربية، وابتكروا النقط والشكل على الحروف لمعرفة نطق الكلمات نطقاً سليماً، ولا سيما القرآن الكريم، حتى لا يتعرض للتحريف. هذا إلى جانب تصنيف المعاجم اللغوية، ووضع علم العروض لمعرفة أوزان الشعر وأحكامه وبحوره. ومن أشهر الرواد الذين حققوا هذه الابتكارات العلمية مع بداية العصر العباسي العالم البصري العربي، الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت 175 هـ) "، وتلميذه وشيخ البصريين بعده العالم الفارسي "أبو بشر عمرو

بن عثمان الملقب بسيبويه (ت 177 هـ) ". ولم تلبث العاصمة بغداد أن شاركت في هذه النهضة العلمية، حيث انتقل إليها عدد من علماء الكوفة والبصرة أمثال " أبي حنيفة" و"، المفضل الضبي " و"الكسائي "الفراء "، و"ابن السكيت "، بحيث صارت بغداد مسرحاً لمناظرات علمية حامية الوطيس بين أشهر علماء العصر.

4- علوم اللسان العربي :

أو ما يسمي باللسانيات أو النحو أو علم اللغة أو علم اللسان، عدد من المصطلحات تترد في التراث اللغوي العربي للدلالة على دراسة اللغة العربية أو بعض جوانبها دراسة علمية منظمة، وإذا أردنا ترتيب هذه المصطلحات حسب الظهور، وجدنا أن مصطلح "العربية" أقدم هذه المصطلحات، يلي ذلك مصطلح "اللغة" أو "متن اللغة"، أما مصطلحات "علم اللسان" و"علم اللغة" فلم يظهر إلا بصورة ضئيلة في كتب تصنيف العلوم، وعند بعض المؤلفين في القرون المتأخرة مثل: السيوطي (ت 911 هـ) وطاش كبري زادة (ت 968 هـ) والفارابي في كتابه "إحصاء العلوم". وسنعرض فيما يلي لمفهوم وحدود كل مصطلح من المصطلحات وما يدل عليه في التراث اللغوي عند العرب:

أ- العربية وعلم العربية:

إن مصطلح "العربية" كان أسبق إلى الظهور من "علم العربية" وقد ظهر مع مصطلحات لغوية في النصف الثاني من القرن الأول الهجري للدلالة على الذين اشتغلوا بدرس اللغة العربية كأبي الأسود الدؤلي وطبقة من قراء القرآن الكريم، وقال أبو النضر: "كان عبد الرحمن بن هرمز أول من وضع العربية"، ثم استقر هذا المصطلح مع طبقة من علماء العربية مثل عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي (ت 117 هـ)، وعيسى بن عمر (ت 149 هـ)، وأبي عمرو بن العلاء (ت 154 هـ) ويونس بن الحبيب (ت 189 هـ)، والخليل بن أحمد (ت 175 هـ)، وتلميذه سيبويه (ت 180 هـ). هؤلاء العلماء الذين درسوا اللغة العربية دراسة علمية منظمة، تقوم على جمع المادة اللغوية وتحليلها واستقرائها من خلال رؤية وصفية ثم استخلاص النتائج وصياغتها في شكل قواعد فيما بعد من طرف النحويين،كما اتسمت هذه الدراسة بالشمول أي دراسة اللغة العربية صوتيًّا وصرفيًّا ونحويًّا ودلاليًّا.

ومن خلال هذه النظـرة الشاملـة القائمة على أصول ومبادئ نظريـة وتحليلية أضيف مصطلح "علم" إلى مصطلح "عربية" فأصبح "علم العربية"، وقد ظهر هذا المصطلح في القرن الثاني الهجري.

ب- النحـو:

أغلب الظن أن مصطلح "النحو" ظهر بعد مصطلح " العربية" أو "علم العربية"، وذلك عندما ظهـرت فئة أو طبقة من المعلمين الذين أخذوا يعلمون الناس قواعد العربية لكي تستقيم ألسنتهم بعد تفشي اللحـن فيهم، وكـان هذا المصطلـح -أول ما ظهر- يشير إلى القواعد التعليمية التي تعلمها الناس لكي يلحقوا بالعرب الفصحـاء في إجادتـهم العربية، كما تدل كلمة "نحويين" على تلك الطبقة من الناس التي أخذت تشتغل بتعليم النحو أي القواعـد التعليميـة، وهو يختلف عن العربية أو علم العربية الذي كان يشير إلى الدراسة العلمية للغة العربية، إلاّ أننا نجد من يسوي بينهما كأبي حيان الذي يرادف بينهما مستدلا بقول سيبويه: "هذا علم ما الكلم من العربية".

ج-**علم اللغة**:

كان مصطلح "اللغة" يدل على نوع من الدراسة المنظمة بخاصة تلك التي تتصل بعمل المعاجم وتأليف الرسائل اللغوية، وبصورة عامة فإنه يدل على دراسة المفردات ومعرفة الدلالات، وتنظيم ذلك في صورة كتب أو معاجم، وهو بهذا يختلف عن مصطلح "العربية" أو "علم العربية"، كما يختلف عن مصطلح "النحو" أيضًا. واستبدل هذا المصطلح فيما بعد بمصطلح جديد وهو "علم اللغة" الذي يشمل دراسة الجوانب التالية: العلاقة بين اللفظ والمعنى،والأصوات أو الحروف التي تتألف منها المفردات،و الصيغ الصرفية،و الدلالة الوضعية للمفردات. أما الموضوعـات التي كانـت تدل عليها مصطلحات "اللغة" أو "علم اللغة" أو "علم اللغات" فتتمثل فيما يلي:

– جمع المادة اللغوية المتمثلة في المفردات وترتيبها.

– عمل المعاجم وبعض الرسائل اللغوية في تنظيم المادة.

– دراسة نص الجوانب (صوتية، صرفية، اشتقاقية).

– معرفة اللهجات العربية القديمة والفروق بينهما.

– البحث في نشأة اللغة.

(4) علم اللسان: يعد هذا المصطلح من المصطلحات النادرة الاستخدام في الدلالة على دراسة اللغة في التراث اللغوي العربي، ويعد "الفارابي" (ت 339 هـ) أقدم من استخدمه في كتابه "إحصاء العلوم" والذي قسمه إلى خمسة فصول وهي:

أ – في علم اللسان وأجزائه.

ب – علم المنطق وأجزائه.

ج– في علوم التعاليم (العدد، الهندسة، علم المناظر ...).

د – في العلم الطبيعي وأجزائه.

ه – في العلم المدني وأجزائه وفي علم الفقه وعلم الكلام.

ونلاحظ أن الفارابي قد وضع في مقدمة هذه العلوم "علم اللسان" كأنما هذا العلم عنده هو مفتاح العلوم الأخرى ومصرفها.

أما ما يقصده الفارابي بمصطلح "علم اللسان" وتصوره لموضوعاته ومنهجه، فنجد ذلك في الفصل الأول، حيث يرى أن علم اللسان ضربان: أحدهما: حفظ الألفاظ الدالة عند أمة ما، وعلم ما يدل عليه شئ منها.

والثاني: علم قوانين تلك الألفاظ. أي أن علم اللسان يتفرع عنده إلى فرعين هما: علم اللسان الإجرائي ذي الغرض التعليمي. وعلم اللسان النظري الذي يعنى بالقضايا العامة في البنية اللغوية. أما فروع علم اللسان وهي عنده تقع في سبعة فروع أو علوم -كما أسماها- بعضها عام يشمل كل اللغات، وبعضها خاص للغة معينة وهي: " علم الألفاظ المفردة، علم الألفاظ المركبة، علم قوانين الألفاظ المفردة،علم قوانين الألفاظ عندما تتركب، علم قوانين الكتابة، علم قوانين تصحيح القراءة، علم الأشعار."

من خلال ما سبق نستطيع القول : إن الفارابي في عرضه لفروع "علم اللسان" يوسع من دائرة هذا العلم بحيث يشتمل عنده على علوم خاصة وعلوم أخرى عامة، كما أدخل في هذا العلم جوانب تعليمية تطبيقية تنتمي الآن إلى فرع مستقل في اللسانيات الحديثة يطلق عليه اسم اللسانيات التطبيقية.

وما هذه إلا إطلالة سريعة على التراث اللغوي عند العرب الذي قدم لنا عددًا من المصطلحات التي تدل في مجملها على طرق ومناهج متعددة في دراسة اللغة العربية وهي النحو واللغة أو علم اللغة، في حين قدم لنا التراث الفلسفي أو المفهوم العلمي لدراسة اللغة عامة واللغة العربية خاصة كما يتمثل في مصطلح علم اللسان. قطاعات البحث اللساني عند العرب: البحث اللغوي قديم في التراث العربي، بدأ مع قيام الحركة العلمية في القرن الثاني الهجري، ولقد نشأت الدراسة اللغوية العربية في رحاب التحول الفكري والحضاري الذي أحدثه القرآن الكريم في البيئة العربية، انطلاقًا من الشعور بمعجزة البناء اللغوي على المستويين التركيبي والدلالي. ولم يكن البحث اللغوي عند العرب من الدراسات المبكرة التي خفوا لها سراعًا، لأنهم وجهوا اهتمامهم أولا إلى العلوم الشرعية الإسلامية، وحين فرغوا منها أو كادوا اتجهوا إلى العلوم الأخرى، ومنذ منتصف القرن الثاني الهجري بدأ العلماء المسلمون يسجلون الحديث النبوي الشريف، ويؤلفون في الفقه الإسلامي والتفسير القرآني وبعد أن تم تدوين هذه العلوم اتجه العلماء وجهة أخرى نحو تسجيل العلوم غير الشرعية ومن بينها اللغة والنحو.

للاطلاع أكثر والاستزادة ينظر:

1- ديوان العرب على الشابكة

2- أحمد مختار عمر:ا لبحث اللغوي عند العرب

3- حسين نصار: المعجم العربي نشأته وتطوره

3- جلال الدين السيوطي:المزهر في علوم اللغة وأنواعها

4- أحمد أمين: ضحى الإسلام